"الميلاد بحسب انجيل متى"

مع الأب ابراهيم سعد

٢٠١٧/١١/٢٨

في زمن ميلاد الربّ يسوع، نتأمّل في رواية الميلاد كما نقلها إلينا متّى الإنجيليّ، علَّ ذلك يساعدنا للدّخول من خلال هذا الحدث الخلاصيّ في حالةٍ من الفرح الدّاخليّ.

إنّ مفهوم عيد ميلاد الربّ يسوع قد تَشَوَّه بسبب المباهج الدّنيويّة الّتي يسعى وراءها المؤمنين، والتّي حوّلت أنظارهم من النّور الحقيقيّ، يسوع المسيح، إلى الأضواء الميلاديّة، واستبدلت الفرح الحقيقيّ، الفرح بالمولود، بالمرح والفرح الزائل. إنّ جوهر هذا العيد هو في عيش المؤمن يقظةً روحيّةً تدفعه إلى التفكير في حقيقة العيد، الّذي تمّ في الماضي ويتحقّق اليوم أيضًا، وفي عيشه لمفاعيل هذا العيد في حياته اليوميّة.

إنّ هذا الحدث الخلاصيّ يدفعنا إلى طرح السؤال حول هويّة الأشخاص المعنيّين بهذا الخلاص، قائلين: لِمَن جاء المسيح؟ ولِمَن أُعطي الخلاص؟ استنادًا إلى روايات الإنجيل الخاصّة بهذا العيد، يمكننا أن نستخلص أنّ المسيح قد جاء ليُخلِّص جميع البشر: الّذين ينتظرونه، وأيضًا الّذين لا ينتظرونه أي إلى الّذين لم يسمعوا به حتّى ينتظروا مجيئه. إنّ الإنسان موجودٌ في فكر الله منذ الأزل، لذلك خلق الله آدم الترابيّ وأراده أن يكون إنسانًا كاملاً. غير أنّ هذا الأخير رفض مشروع الله الخلاصيّ له، لذا أَرسل الله ابنه الوحيد، يسوع المسيح إلى أرضنا، ليتجسّد فيها ويعيد للإنسان إنسانيّته. يقول أحد القدّيسين في هذا الحدث الخلاصيّ إنّ الله صار إنسانًا ليؤَلِّه الإنسان. في تَجسُّد المسيح، أعطى اللهُ الآب آدمَ الترابيّ، مثالاً عن الإنسان الكامل، وهو يسوع المسيح، يسوع الناصريّ. في سفر التكوين، نقرأ أنّ الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله. إنّ أيقونة الله وصورته هي الحبّ، وبالتّالي إنّ الله خلق الإنسان على صورة الحبّ الإلهيّ، أي يسوع المسيح، ولكنّنا لم نتمكّن نحن البشر مِن فَهمِ ذلك إلّا في التجسُّد. إنّ آدم الترابيّ قد شوَّهَ صورة الحبّ فيه، ورَفَضَ محبّة الله المزروعة في قلبه.

يقول الكتاب المقدَّس إنّه "لـمّا حلّ ملء الزّمان، أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة، مولودًا تحت النّاموس". إنّ عبارة "لـمّا حلّ ملء الزّمان" تعني أنّه حين باءت كلّ محاولات الله لِمَنح الإنسان الخلاص من خلال الأنبياء والمُرسَلين بالفشل، قرّر الله إرسال إبنه الوحيد ليكشِف للبشر من خلاله عن السبب الحقيقيّ للخَلِق. إنّ الله قد خلق البشر كي يُصبحوا على صورة المسيح، أي كاملين لا عيب فيهم. إنّ الله أرسَل ابنه يسوع إلى أرضنا، فوُلِد من امرأةٍ ليفتديَ جميع الّذين هم تحت

النّاموس، ويمنحهم نعمة التبنيّ. إذًا، إنّ يسوع قد وُلِد في أرضنا كي يجعل من جميع البشر أبناءً لله، غير أنّ المؤمنين في زمن الميلاد يهتمّون بأمور دنيويّة كثيرة مُتجاهلين تحضير ذواتهم كأبناء الله للاحتفال بهذا العيد. إنّ الكتاب المقدَّس يُضيف قائلاً إنّنا لم نعد عبيدًا لله بل أحبّاءه. بِتَجسُّد يسوع المسيح في أرضنا، حرّرنا الله من كلّ عبوديّة وجعلنا أبناءً له. قد يتحرر الإنسان من العبوديّة من دون أن يصبح ابنًا لله. إنّ الله لم يكتفِ بتحرير الإنسان من عبوديّته للخطيئة ولآلهةٍ أخرى، بل جعله ابنًا له، وبالتّالي وريثًا لملكوته السماويّ بيسوع المسيح: هذا هو الفرح الحقيقيّ في هذا العيد. لا يستطيع الإنسان أن يفهم عظمة حبّ الله له، ولكنّه يستطيع أن يقبل بهذا الحبّ الّذي لا وصف له الّذي يمنحه إيّاه الربّ في سرّ التَجسُّد.

يَعرِض لنا الإنجيليّ متّى في بداية إنجيله، سلالة يسوع البشريّة المملّة والمخجلة، ليؤكّد على تجسُّد الله المسيح في بشريّتنا من أحشاء مريم، من أجل خلاص البشريّة الضعيفة. يبدأ متّى بتِعداد تلك السلالة بعبارة "كتاب ميلاد يسوع". استنادًا إلى الترجمة الأصليّة لهذا النّص، نجد أنَّ عبارة "كتاب ميلاد يسوع"، يُقصَد بها "كتاب نَسَب يسوع"، أي سلالته البشريّة. إنّ هذه السلالة البشريّة تحتوي أسماء شخصيّات اشتهرت بخطاياها الجسيمة، كما تتضمّن أسماء شخصيّات غير يهوديّة. إنَّ هدف متّى مِن عرضِه لهذه السلالة البشريّة هو زَرع الرّجاء في قلوب المؤمنين مؤكّدًا لهم أنَّ المسيح قادرٌ على الولادة فيهم مِن جديد على الرّغم مِن خطاياهم العظيمة.لم يعد بإمكان أيّ مؤمن استثناء نفسه من هذا الحدث الخلاصيّ، إذ لا أحد من البشر يستحقّ هذه النِّعمة، ولكنّ الله بفيضِ حبّه منحنا خلاصه وبالتّالي ميراثه، إذ أصبحنا أبناءه. فهل يمكن أن نسمّي تصرّف الإنسان حكمةً حين يَرفضُ ميراث الله ليبحث عن ميراث آخر دنيويّ؟

في الإصحاح الأوّل من إنجيل متّى، وفي الآية الأولى منه، نقرأ اسْمَين مهمَّين هما: داود وابراهيم. إنّ داود هو شخصيّة يهوديّة معروفة جدًّا، أمّا ابراهيم فهو إنسانٌ غير يهوديّ، إذ إنّه عاش في مرحلة ما قبل النّاموس، أي قبل وجود موسى، وبالتّالي قبل تكوين الشَّعب اليهوديّ. إذًا، إنّ يسوع هو ابن البشريّة كلّها لأنّه من سلالة داود اليهوديّ، وأيضًا من سلالة ابراهيم غير اليهوديّ. إنّ متّى ولوقا قد تفرَّدا عن بقيّة الإنجيليّين بعرضِهما لسلالة يسوع البشريّة: نلاحِظُ فرقًا بين هذَين الإنجيليَّين، إذ يعرض الإنجيليّ متّى هذه السلالة ابتداءً من ابراهيم وصولاً إلى يوسف زوج مريم، بينما يعرضها لوقا بطريقة معاكسة أي مبتدئًا بيوسف ليصل إلى آدم، واصفًا هذا الأخير بابن الله. لقد ذَكَرَ هذان الإنجيليّان سلالة يسوع البشريّة ليؤكّدا لنا انتماء يسوع إلى سلالة آدم الّذي رفض أن يكون ابنًا لله، وأنّ يسوع بِتجسُّده قد أعاد نعمة البنوّة لله للبشريّة جمعاء.

أورَدَ متّى سلالة يسوع على هذا النّحو:"ابراهيم ولد اسحق، واسحق ولد يعقوب،..."، غير أنّه في بعض الأحيان يكسر تلك الرتابة في تعداد الأسماء، فيقول على سبيل المثال إنَّ "يهوذا وَلَدَ فارص وزارح من تامار". إنّ تامار هي امرأةٌ غير يهوديّة، تنتمي إلى سلالة يسوع. في سلالة يسوع البشريّة حسب الإنجيليّ متّى، أربع نساء: منهنّ زانيات، ومنهنّ غير يهوديّات. تقوم العادة في العهد القديم على إعطاء الأب النَسَبَ لأبنائه، وبالتّالي حين يُنسَب الطِّفل إلى أمّه، فهذا دليل على أنّ أمّه إمّا زانية، أو أنّها هي الّتي تسيطر على بيتها، وبالتّالي تسيطر على زوجها. يذكر لنا العهد القديم قصّة هذين

الوَلَدين التوأمين: فارص وزارح، يُشدِّد على مسألة البُكوريّة في هذه الحالة لمعرفة مَن هو الوريث، وبالتّالي معرفة هويّة الّذي سيُكمل المسيرة مع الله بعد أبيه. لذلك، كان يتمّ وَضْعُ رباطٍ على يَد الولد الأوّل الّذي يخرج من أحشاء والدته، فيكون هو البِكر. غير أنّ الملفت في قصّة هذين الوَلَدين هو أنّ زارح كان ينوي الخروج أوّلاً من بطن أمّه، لكنّه تراجع عن ذلك وأفسح المجال لأخيه فارص كي يخرج أوّلاً فكانت البُكوريّة مِن نصيب أخيه. إنَّ العبرة مِن هذه القصّة هي أنّ خلاص الله لا يتوقّف على اليهود، فإنْ تَراجَع هؤلاء عن قبولهم الخلاص، عندها سيمنح الله خلاصه لكلِّ من يُقبِل إليه ويَقبَل بهذا الخلاص، أكان يهوديًّا أم وثنيًا، لأنّ الخلاص ليس حِكرًا على اليهود.

ويتابع الإنجيليّ متّى سَرْدَ سلالة يسوع فيقول: "سَلْمون وَلَدَ بُوعَز مِن راحاب". إنّ راحاب هي امرأة بغيّ، ساهمت في تحقيق مشروع الله الخلاصيّ إذ خبّأت عندها المُرسَلَيْن مِن قِبَل النبيّ يشوع إلى أريحا ليراقبا المنطقة بُعَيد قراره دخولها عسكريًّا. اهتمّت راحاب بهما وحرصت على حمايتهما من الموت على يد الأعداء. ويُكمِل متّى تعداده أسماء الشخصيّات الّتي تنتمي إلى سلالة يسوع، فيقول "داود وَلَد سليمان، مِنَ الّتي لأُوريّا". كانَ أوريّا قائدًا عسكريّا في جيش المملكة اليهوديّة، وقد كان رَجُلاً متزوجًا. أُعجِب الملك داود بامرأة هذا القائد، وأراد الزّواج بها، لذا أرسل زوجها أُوريّا إلى الحرب وَوَضَعَه في الصّفوف الأماميّة كي يُقتَل فيها، فيتمكّن مِن الزواج من امرأة قائده. وهذا ما حدث، إذ تزَوَّج الملكُ امرأةَ أُورِيّا وأنجب منها سليمان الملك. يقف الإنسان مندهشًا مذهولاً أمام سلالة يسوع، ويستغرب خروجَ شيءٍ صالحٍ من سلالة تضمّ خطأة. غير أنّ الربّ يسوع قد خرج من تلك السّلالة ليُفهِمنا أنّه مهما تعاظمت خطايا الإنسان، فالربّ قادر على الولادة فيه إن سمح الإنسان له بذلك، إذ لا شيء مستحيل عنده.

ويتابع الإنجيليّ متّى سَرْدَ سلالة يسوع حتّى وصوله إلى يوسف قائلاً:"ويعقوب وَلَد يوسف رَجُل مريم، الّتي أتى منها يسوع، الّذي يُدعى المسيح. فجميع الأجيال من ابراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً، ومن داود إلى سبي بابل، (أي مرحلة التهجير) أربعة عشر جيلاً، ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً." يبدو جَليًّا استعمال الإنجيليّ الرقم "أربعة عشر" ثلاث مرّات. إنّ الرقم "أربعة عشر" هو ضُعف الرقم سبعة. إذًا، يمكننا تقسيم المجموعات الثّلاث المؤلّفة من أربعة عشر جيلاً إلى ستّ مجموعات مؤلّفة كلٌّ منها من سبعة أجيال، لتبدأ المجموعة السابعة، رمز الكمال، مع يسوع المسيح.

وبالتّالي فإنَّ الكمال لا يمكنه أن يتحقّق إلّا مع يسوع، الإنسان الكامل. لقد اتَّبع متّى هذا التقسيم للأجيال ليُرَكِّز على الشخصيّة الأولى في كلّ جيل، إذ يقول إنّ الأجيال من ابراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً، ومن داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلاً، ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً. إنّ الله قد وعد ابراهيم بأن يُعطيه نسلاً، فاعتقد اليهود أنَّ ذلك الوعد قد تحقّق بداود الملك إذ أصبح لهم مملكة. غير أنّ داود الملك فشل في تحقيق الخلاص الموعود، لأنّه لم يُصغِ لا هو ولا الشَّعب إلى كلمة الله، فتَمَّ سبي المملكة وتهجيرُ شعبها إلى بابل حيث العبوديّة. ولكنّ اليهود استمرّوا في انتظار الخلاص حتّى في أرض الشَّتات، غير أنَّ الخلاص لم يتحقّق إلّا مع مجيء المسيح يسوع أي بعد مرور أربعة عشر جيلاً على السبيّ.

بعد الانتهاء من عرض سلالة يسوع المِمّلة والمخجلة، تفرَّغ متّى لسرد رواية أحداث الميلاد، قائلاً: **"أمّا ميلاد يسوع المسيح فكان هكذا: لمّا كانت أمّه مريم مخطوبة ليُوسف، وقبل أن يسكنا معًا، وُجِدَت حامِلاً من الرّوح القدس. ولمّا كان يُوسفُ رَجُلَها بارًّا، ولا يريد أن يُشهِّرَ بها، قرَّر أن يُطلِّقها سرًّا. وما إن فكَّر في هذا حتّى تراءى له ملاكُ الربِّ في الحُلم قائلاً: "يا يوسف بنَ داود، لا تَخَفْ أن تأخُذَ مريم امرأتَكَ، فالمولود فيها إنّما هو مِنَ الرّوح القدس. وسوف تَلِدُ ابنًا، فَسَمِّه يسوع، لأنّه هو الّذي يُخلِّص شعبه من خطاياهم". وحدَثَ هذا كُلُّهُ ليتمَّ ما قاله الربّ بالنبيّ:"ها إنّ العذراء تحمِلُ وتلِدُ ابنًا، ويُدعى اسمه عمّانوئيل، أي الله معنا". ولمّا قام يوسف من النَّوم، فعل كما أمَرَهُ ملاكُ الربِّ وأخذَ أمرأته ولم يعرِفها، فوَلَدَتْ ابنًا، وسمّاه يسوع"** (متى ١: ١٨-٢٥).

إنّ عبارة "مريم كانت مخطوبة"، تُشير إلى أنّه لم يكن بينها وبين يوسف أيّة علاقة جسديّة، ولكنّ هذا لا يُدلّ أبدًا على وجود مثل تلك العلاقة بعد ولادة يسوع. إنَّ هدف الإنجيليّ متّى هو نقل البشارة بولادة يسوع، لا الكلام عن الحياة الزوجيّة ليوسف ومريم. كان يوسف رجُلاً بارًّا أي أنّه اشتهر بتطبيقه النّاموس اليهوديّ في حياته. إنّ النّاموس يفرِض على يوسف، في حالة مريم، أن يُخبِر رؤساء الشريعة عنها ليتمّ رجمها حتّى الموت، لأنّها وُجِدت حاملاً قَبلَ أن يتساكنا. غير أنَّ يوسف لم يُرِد أن يُشَهِّر بها، لذا قرّر إخلاء سبيلها سرًّا. إنّ تطبيق المؤمن للنّاموس قد يؤدّي في بعض الأحيان إلى عرقلة مشروع الله، وفي الكتاب أمثلة كثيرة عن ذلك. فمثلاً في قصّة يعقوب وعيسو، نجد أنّ النّاموس يقتضي بأن يكون البكر، أي عيسو، هو الّذي يحصل على البركة الأبويّة كي يُكمل مسيرة أبيه صوب تحقيق وعد الله لشَعبه. غير أنَّ اسحق، أباه، كان يُعاني من شِحٍّ في نظره، فاستَغَّل أخوه، يعقوب، هذا الضُّعفَ عند أبيه فخدعه كي يتمكّن من الحصول على البركة بدلاً من أخيه عيسو، وهذا ما حدث، إذ أكملت مسيرة شعب الله مع يعقوب. لا يمكن لخطايا البشر أن تكون عثرةً أمام تحقيق الله لمشروعه الخلاصيّ، لا بل إن الله يُحوّل تلك الخطايا إلى سببٍ لتحقيق عمله الخلاصيّ. إنّ نظرة الله إلى البشر مختلفة كلّ الاختلاف عن نظرتِنا لهم، لذا فلنحاول أن نجعل نظرتَنا إلى الآخرين شبيهةً بنظرة الله لهم.

عندما قرّر يوسف تخلية سبيل مريم، ظهر له الملاك مناديًا إيّاه: "يا يوسف بنَ داود"، لا "يا يوسف بن يعقوب". إنّ يوسف هو ابن يعقوب، استنادًا للسلالة الّتي أوردَها متّى، غير أنّ الملاك ناداه قائلاً: "يا يوسف بن داود" لتذكير يوسف أنّه ينتمي إلى الشَّعب اليهوديّ الّذي ينتظر خلاص الربّ. حين ظهر ملاك الربّ ليوسف، طلب منه أن يُطلق على الطِّفل اسم "يسوع". إنّ اسم الإنسان يدلّ على وظيفته في هذه الحياة، أي المَهمّة الَّتي سيوكلها إليه الله. إنّ الملاك يشرح ليوسف معنى اسم "يسوع"، إذ يقول له "لأنّه يخلِّص شعبه من خطاياهم". اعتقد اليهود أنّ الله سيُخلِّصهم من أعدائهم الخارجيّين، أي من السلطة المحتلَّة لأراضيهم، غير أنّ الله أراد منحهم الخلاص من أعدائهم غير الظّاهرين، أي من خطاياهم. من خلال هذا النّص الإنجيليّ، يدعونا متّى إلى تغيير ذهنيّتنا وسلوكِنا، فنكون مستعدّين لاستقبال المولود الإلهيّ

في قلوبنا. إنّ التغيير الفعليّ لمسيرة الإنسان أي لِذِهنيّته، تكون من خلال التوبة إلى الله. يلجأ الله إلى وسائل متعدّدة ليُخبر الإنسان بمشروعه الخلاصيّ، وإحدى تلك الوسائل الّتي استخدمها مع يوسف هي ظهور ملاك الله له في الحلم.

إنّ هذه النبوءة الّتي أورَدها متى في انجيله: "ها إنَّ العذراء تحمل وتلد ابنًا، فيَدعون اسمه عمّانوئيل"، هي في الحقيقة نبوءةٌ أعلنها الربّ على لسان النبيّ أشعيا. في أيّام أشعيا، أي قبل المسيح بثمانِئة سنة، حُوصِرت أورشليم من الأعداء وكان الملكُ آحاز، ملك أورشليم، لا يعرف كيف السبيل لخلاص مدينته من الدّمار، وشعبه من الموت. وبينما كان الملك محتارًا في أمره، أرسل له الله النبيّ أشعيا قائلاً له: "ها إنّ العذراء تحمِلُ وتلدُ ابنًا ويدعى اسمه عمّانوئيل أي الله معنا"، مُعلنًا له أنّ خلاص مملكته سيتِمُّ من خلال ولدٍ صغيرٍ، وقد طلب منه النبيّ التمسُّك بكلمة الله هذه، وعدم التحالف مع المُدن المجاورة الوثنيّة. إنّ الترجمات اليونانيّة أظهرت تبايُنًا ملحوظًا في ترجمة هذا النّصّ العبريّ، فَمِنهم مَن استخدم عبارة "فتاة" للدلالة على أنّ هذا المخلوق الأُنثى سيبقى عذراء إلى فترةٍ مُحدّدة مِن الزّمن، وَمِنهم مَن استخدم عبارة "العذراء" للدلالة على أنّ هذا المخلوق الأُنثى سيبقى عذراء للأبد، أي دون زواج. إنّ النبيّ أخبر الملك أنّ خلاص مملكته سيتمّ مِن خلال ولدٍ يستطيع التمييز بين الخير والشّر، لكنّ الملك رفض تصديق هذه الكلمة الإلهيّة، ورفض انتظار تحقيق تلك النبوءة المستحيلة التحقّق في الأمد القصير، وقد بَدَت غير منطقيّة بالنسبة إلى ظروف المملكة. إنّ مشكلة الملك آحاز مع كلمة الله، هي مشكلة كلّ مؤمن مع كلمة الله، إذ يرفض الإنسان أن يُصدِّقها، لأنّها تبدو له نِسْبةً إلى الظروف الّتي يمرّ بها غير منطقيّة، ومستحيلة التحقّق، لذا لا يقبل بها، ولا تستطيع بالتّالي أن تَلِج إلى عقله. حين رفض الملك آحاز تصديق تلك النبوءة، طلب النبيّ أشعيا من تلاميذه، وَضعَ تلك الكلمة في لفائف قَبْلَ طمرها في التّراب لأنّ تلك الكلمة ستتحقّق يومًا ما. وها هي قد تحقّقت في أيّام الإنجيليّ متّى.

تتألّف كلمة عمّانوئيل مِن كلمتين: الأولى "عمّانو" وتعني "معنا"، و"إيل" وتعني الله، وبالتّالي فإنّ كلمة "عمانوئيل" تعني الله معنا. إنّ الإنجيليّ متّى يحمل البشارة إلى اليهود، أنّ هذا الإله الّذي اعتقدوا أنّه تركهم خلال السبيّ بسبب خطاياهم، سيعود ليسكن معهم من خلال هذا المولود الإلهيّ. في القديم، أَرسَل الله الأنبياء إلى الشّعب اليهوديّ لتذكيرهم بضرورة التوبة، وتصحيح مسارهم. في بداية إنجيل متّى، نقرأ نبوءة أشعيا الّتي تُخبرنا أنّ الله معنا؛ وفي نهاية إنجيل متّى، وتحديدًا في الآية الأخيرة منه، نلمس تحقيق تلك النبوءة إذ يقول الربّ لتلاميذه قبل صعوده إلى السّماء:"اذهبوا وتلمذوا كلّ الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والرّوح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به، وهاءنذا معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم" (متّى ٢٨: ١٩-٢٠).

إنّ الملاك لم يُعطِ يوسف البّار سوى كلمة، كبرهان على مصداقيّة كلامه. ويُخبرنا الكتاب المقدّس أنّه حين استيقظ مِن نومه، قام يوسف بما أمرَهُ ملاك الربّ في الحُلم. ويقول لنا الكتاب المقدّس أيضًا إنّ يوسف لم يعرف مريم حتّى ولَدت ابنها البكر، وفي ذلك تأكيد على عدم وجود أيّ تدخّلٍ بشريّ في ولادة يسوع. إنّ كلمة "البكر"، لا تعني أنّه ليسوع إخوةً، إذ إنّ المولود الأوّل في العائلة يُسمّى بِكرًا، أكان وحيدًا أم كان لديه إخوة آخرون. إنّ كلمة "البِكر" في العهد القديم تعني

الوريث. لقد سمّى يوسف الطِّفل باسم "يسوع"، وفي هذا إشارة إلى طاعة يوسف لكلام الملاك، أي لكلمة الله، وما هذا إلّا دليلٌ آخرُ على برارة يوسف. في بداية انجيل متّى، نقرأ عن يوسف البّار، زوج مريم، الّذي اهتمّ برعاية الطّفل يسوع وأمّه؛ وفي نهاية إنجيل متّى، نقرأ عن يوسف آخر، هو يوسف الرّامي الّذي أنزل المسيح عن الصّليب، ووَضعه في القبر، قبره الخاصّ الجديد. ومن خلال هذه المقارنة بين بداية انجيل متّى ونهايته، نستطيع الاستنتاج أنَّ ولادة يسوع تُشكِّل مقدِّمة لموته، إذ مَن يُحبّ كثيرًا يُحكَم عليه دائمًا بالموت. إنّ يسوع المسيح، هو صورة الإنسان الكامل الّذي كان الله يحلم بأن تتحقّق في آدم. إنّ الله قد خلق آدم، إنسانًا حرًّا، وبالتّالي إنسانًا مُحبًّا. إنّ الحبّ هو صورةٌ عن الحريّة، فمَن كان عبدًا لا يستطيع أن يُحبّ. إنّ المحبّة تنبع من حريّة الإنسان، وهي تجعله عبدًا بحريّته لِمَن يُحبّ. إنّ الّذي يُحبّ يسعى إلى خدمة الّذي يُحبّه، وبالتّالي يُصبح عبدًا لهذا المحبوب. إذًا، إنّ المحبّة تتطلّب عبوديّة طوعيّة من الإنسان تجاه المحبوب، وهذه المحبّة تُحرِّرك مِن كلّ أشكال العبوديّة الأخرى.

"ولمّا وُلِد يسوعُ في بيت لحم اليهوديّة، في أيّام المَلِك هيرودس، إذا مجوسٌ قَدِموا أُورَشَليم مِن المشرِق وقالوا: "أين مَلِكُ اليهود الّذي وُلِد. فقد رأينا نجمَه في المشرق، فجئنا لنَسجُدَ له". فلمّا بلغ الخَبَرُ المَلِكَ هيرودس، اضطرب واضطربت معه أورَشَليم كلُّها. فجَمَعَ عُظماء الكهنة وكتبَة الشَّعب كُلَّهم واستخبرهم أينَ يولَدُ المسيح. فقالوا له: "في بيت لحم اليهوديّة، فقَدْ أُوحِيَ إلى النبيّ فكَتَبَ: "وأنتِ يا بيتَ لحمَ، أرضَ يهوذا، لسْتِ أصغَرَ ولايات يهوذا، فمِنكِ يخرُج الوالي الّذي يرعى شعبي إسرائيل." فدعا هيرودس المجوسَ سِرًّا وتحقَّقَ منهم في أيِّ وقتٍ ظهرَ النَّجم. ثمَّ أرسَلهم إلى بيتَ لحمَ وقال: "إذهبوا فابحثوا عن الطِّفلِ بحثًا دقيقًا، فإذا وَجَدتموه فأخبروني لأَذهبَ أنا أيضًا وأسجُدَ له". فلمّا سَمِعوا كلام الملك ذهبوا. وإذا النَّجمُ الّذي رأوه في المشرق يتقدَّمُهم حتّى بلَغَ المكانَ الّذي فيه الطِّفل فوقفَ فوقه. فلمّا أبصروا النَّجم فرِحوا فرحًا عظيمًا جدًّا. ودخلوا البيتَ فرأوا الطِّفلَ مع أمِّه مريم. فجثُوا له ساجِدين، ثمّ فتحوا حقائِبَهم وأَهدوا إليهِ ذهبًا وبخورًا ومُرًّا. ثمّ أُوحِيَ إليهم في الحُلمِ ألّا يرجِعوا إلى هيرودس، فانصرفوا في طريقٍ آخر إلى بلادِهم." (متّى ٢: ١-١٢)

إنّ كلمة "بيت لحم"، مؤلّفة من كلمتين: "بيت" وتعني قرية، و"لحم" وتعني خُبز، وبالتّالي تصبح "بيت لحم"، هي قرية الخُبز. إنّ يسوع وُلِد في بيت الخُبز لأنّه هو خُبزُ الحياة، وهذا ما نقرأه في إنجيل يوحنّا إذ ينقل لنا عن لسان يسوع قوله: "أنا هو الخبز النّازل من السّماء"، فيسوع هو القربان. إنّ "الملك هيرودس" دلالة على المجتمع اليهوديّ. فالمجوس قد جاؤوا من المشرق إلى المجتمع اليهوديّ ليسألوا رئيسه عن مكان ولادة "ملك اليهود". كان هيرودس وكذلك الشَّعب اليهوديّ، في حالة انتظار لمجيء المخلِّص، وبالتّالي كان من المفترض أن تحمل بشارة المجوس لهم سببًا للابتهاج والفرح، لا للاضطراب كما نقل إلينا الإنجيليّ متّى. إنّ المجوس هم وثنيون لا يهود، أي أنّهم لم يسمعوا يومًا بكلمة الله وبوعده لشعبه، جاؤوا من أقاصي الشرق ليسجدوا لملك اليهود. جاء المجوس يطرحون السؤال على هيرودس قائلين:"أين هو ملك اليهود؟ فإنّنا رأينا

نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له". إنّ السجود يدلّ على الخضوع، والسّجود للمسيح يدلّ على اعتراف هؤلاء بربوبيّة يسوع.

إنّ اضطراب أورشليم وملِكها عند سماعهم خبر ولادة يسوع، يُذكّرِنا باضطراب أورشليم ورؤساء كهنتها يوم أعلنوا الحُكم على يسوع بالموت. إنّ إعلان المجوس البشارة يُذكّرِنا بالقائد الرومانيّ الّذي اعترف بيسوع ابنًا لله، يوم رأى الماء والدّم يخرجان من جنبه على الصّليب حين طعنه بالحربة. إنّ الجنود الرّومان الّذين كانوا يحرسون القبر هم الّذين اكتشفوا قيامة الربّ واعترفوا بها، في حين أنّ اليهود سعوا إلى قتل تلك البشارة عبر رشوة هؤلاء الجنود بالمال وحثّهم على نشر كذبةٍ بادّعاءهم أنّ التّلاميذ هم الّذي سرقوا الربّ. أعلن المجوس لليهود ولادة المخلّص، فعِوَضَ أن يقبلوا بتلك البشارة، قرّروا من خلال مَلِكهم هيرودس، قتل كلّ الرُضَّع في بيت لحم. استخبر الملك هيرودس الملك المجوس عن وقت ظهور النَّجم ليعرف العمر التقريبيّ للمولود. إنّ الغرباء قد اعترفوا بولادة المسيح وجاؤوا ليسجدوا له، في حين أنَّ شعبه قد رفض ولادته وحاول قتله. إنّ الكتاب المقدّس يتكلّم عن مكان ولادة المسيح المنتظر، وجاء المجوس ليؤكّدوا لهم ما ورد في كتابهم:"وأنتِ يا بيتَ لحمَ، أرضَ يهوذا، لستِ أصغَرَ ولايات يهوذا، فمنكِ يخرُج الوالي الّذي يرعى شعبي إسرائيل." إنّ طلَبَ الملك هيرودس من المجوس الذّهاب للبحث عن المولود، يُعبّر عن ريائه. إنّ المجوس شعروا بالفرح حين رأوا النَّجم يتقدَّمهم، ويَدُلّهم على مكان ولادة الملك، فأعلنوا خضوعهم له إذ سجدوا له، وقدّموا له هداياهم: الّذهب تعبيرًا عن اعترافهم به ملكًا، والبخور تعبيرًا عن اعترافهم بألوهيّته، والمُرّ تعبيرًا عن إعلانهم شهادته. إذًا، من خلال هذه الهدايا اعترف المجوس بأنّ يسوع المسيح، هذا الملك المولود، هو الملك الإله، الّذي سيموت من أجل خلاص البشر. إنّ المجوس فعلوا كما أُوحِيَ لهم في الحلم، فعادوا إلى قراهم من طريقٍ أخرى مِن دون العودة إلى هيرودس.

بعد انصراف المجوس، أوحى ملاك الربّ ليوسف بالهروب مع الصبيّ وأمّه إلى مصر، فأطاع يوسف مرّةً أخرى الملاك، ممّا يدلّ على برارته. قبل ولادة يسوع، كان الملاك يُكلِّم يوسف قائلاً له: "خذ امرأتك"؛ أمّا بعد الولادة، فتغيّرت تعابير الملاك مع يوسف إذ أصبح يقول له: "خذ الصبيّ وأمّه"، لا "امرأتك"، وفي هذا إشارة إلى أنّ ارتباط مريم هو بالمولود لا بيوسف رَجُلِها. إنَّ مريم هي صورة البشريّة الّتي قبلت بيسوع المسيح مخلّصًا لها، وإلهًا.

إنّ هدايا كثيرة قُدِّمت للمولود: البشريّة قدَّمت له أمًّا، والسّماء نجمًا، والأرض مذودًا أي بيتًا، والملائكة التسابيح، والرّعاة ذواتهم، والمجوس الذّهب والبخور والمُرّ، والأُمم قدَّمت له السُّجود. إنّ كلّ تلك الهدايا تدفعنا إلى طرح السؤال على ذواتنا: ما هي هديّتنا للمولود في يوم ميلاده؟ إنّ العادات الإنسانيّة تقوم على تقديم هديّةً للمولود عند ولادته تعبيرًا عن فرحِنا بحضوره في وَسَطِنا. إنّ ولادة يسوع، في عالمنا اليوم، مختلفةٌ عن ولادته في الجسد في بيت لحم، إذ اختار سكناه بين المعزولين والمسحوقين في هذا العالم، بين المطرودين والّذين لا خُبزَ لهم. إنّ المسيح يُولَد في كلّ مؤمن حين يسعى هذا الأخير إلى إعطاء الخبز لكلّ إنسان محتاج. وحين يُعطي المؤمنُ الآخرينَ حاجتهم من الخبز، يستطيع عندها أن يختبر فرح ولادة المسيح فيه.

حسب رواية الإنجيليَّين متّى ولوقا لحدث الميلاد، فإنّهما لا يتكلَّمان عن مغارة بل عن "مذود"، أي اسطبل، الّذي هو بيت الحيوانات. إنّ المغارة هي صورة ليتورجيّة وثمرة إبداع فنيّ في رسم الأيقونات. هناك تشابه بين أيقونة الميلاد وأيقونة القيامة: فالمغارة في الميلاد تُشبه القبر في أيقونة القيامة، والأقمطة الّتي لُفَّ بها المولود هي نفسها الأقمطة الّتي لُفَّ بها المصلوب قبل وَضعِهِ في القبر. إذًا، من خلال مقارنتِنا بين هاتين الأيقونتين، نكتشف أنَّ هذا المولود هو نفسه الّذي سيموت لاحقًا ويوضع في القبر، بسبب حبّه للبشر. إنّ الطِّفل المولود، يسوع المسيح، لا يمكن لنا أن نجده في بيت لحم اليهوديّة، إنّما باستطاعتنا إيجاده في كلّ إنسان حيٍّ، ولكنّه يعيش كالأموات بسبب احتياجاته لأمور متعدِّدة. إنّ المؤمن يختبر فرح الميلاد الحقيقيّ، ويختبر ولادة المسيح فيه، حين يُعطي الآخرين حاجتهم فيُولَدوا من جديد في الحياة من خلال عطائه، ويُدخِل الفرح أيضًا إلى قلوبهم. فكما وُلِد يسوع بيننا، إنسانًا مسحوقًا يحتاج إلى عناية، كذلك يُولَد يسوع فينا حين نقوم بمساعدة إنسانٍ قد سحقته الحياة ونسعى إلى انتشاله من هذا الانسحاق الّذي يُعاني منه.

إنَّ أيقونة الميلاد تُظهر لنا الطِّفل المولود خارج المغارة، وكذلك مريم أمّه هي خارج المغارة. إنَّ مريم العذراء لا تنظر إلى المولود حسب الأيقونة، بل إنّ عينيها تتجِّهان صوبنا نحن البشر، ومن هنا نستطيع أن نفهم قيمة الشَّفاعة. إنَّ ثوب العذراء مريم في أيقونة الميلاد يتَّخذ شكل حبّة القمح، لأنّ مريم هي الّتي أعطت البشريّة الحياة، إذ أعطتنا ربّ الحياة، يسوع المسيح. إنّ الثّور والحمار الموجودَين في الأيقونة، لم يُرسما لتدفئة الطِّفل المولود كما هو شائعٌ، أو لأنّهما ذُكِرا في قصّة الميلاد، فقصّة الميلاد كما رواها الإنجيليَّان متّى ولوقا لا يُذكر فيها أبدًا وجود ثورٍ أو حمار في ذلك المذود. إنّ وجود الثّور والحمار في الأيقونة هو تجسيد لما وَرَدَ في العهد القديم عن هذين الحيوانين إذ قال فيهما إنّهما عرفا صاحبهما، في حين أنَّ شعب الله لم يتمكّن من معرفة ربّه وإلهه. إنّ الّذين عرفوا الله، بحسب الروايات الإنجيليّة للميلاد، هم المجوس، أي الوثنيّون الّذين لم يسمعوا يومًا بالخلاص، فجاؤوا إليهم، وسجدوا له مقدِّمين له الهدايا.

إذًا، في استعدادنا للعيد، علينا أن نسعى إلى عيش الفرح الحقيقيّ الّذي لا يرتبط بالزينة والمباهج الدّنيويّة مِن حولنا. علينا في هذا العيد، أن نبحث عن صاحب العيد، فنجده ونسجد له. إنّ صاحب العيد يسكن في قلوبنا، لذا علينا الحذر من أن تتمكّن أنوار الدّنيا ومباهجها وضجيجها من أن تُطفئ النّور الحقيقيّ الّذي وُلِد فينا، فتقتله فينا كما فعل هيرودس مع أطفال بيت لحم، للتخلّص من المولود. إنَّ هيرودس لم ينجح في قتل المولود، فلا نسمحنَّ للأضواء العالميّة بقتله فينا. على المؤمنين أن يحذروا من إضاعة البوصلة في بحثهم عن المولود، فيذهبوا للسُّجود للملك اليهوديّ هيرودس، عِوَض الذهاب إلى الطِّفل الإلهيّ والسّجود له. آمين.

ملاحظة: دُوِّنت المحاضرة مِن قِبَلِنا بتصرُّف.